أدب البحر

عند العرب والفرنجة

لم يأنس العربي بشيء في يوم من أيام حياته إئناسه بناقته ، فهي عروس الصحراء يتغنى بها ويشدو ، ويريق عليها روائع الوصف وبدائع الوشي ، وهي الى هذا كله ملاذه الأمين ، إذا عطش شرب من ضرعها ، أو جاع نحرها ، أو ارتحل امتطاها ، مثل هذه الناقة عزيزة على العربي ، كان يضرب بها في مشارق الأرض ومغاربها وفي بعض الأحايين يقف أمام شيء أزرق لا حدود له ولا نهاية ، فتبهره روعة هذا الشيء العظيم ، ولما كانت طبيعة الصحراء هي الحاكم المطلق في نفس العربي ، لذلك رأيناه يبتعد جهده عن البحر ، هـذا البحر الذي قال عنه لوتي : (الحلقة الزرقاء والوحدة القاتمة العميقة ، لا شيء يمر ولا شيء يتغير) . يرتد العربي عن البحر ، وفي قلبه تطلع الى ارتياد آفاقه ، ولكنه يعلم حق العلم وحدته في دنيا البحر ، فلكل شعوب الأرض لها آلهة ، وهذه الآلهة تتولى كل حرفة برعايتها ، وكل صنعة بعنايتها ، فالاغريقي مثلاً يؤمن بـ (بوسيدون) إله اليمّ ، ويعتقد فيه اعتقاداً عميقاً قوياً حتى انه كان لا يتورّع عن تقديم ضحايا بشرية له ، مقابل بسط سلطان رحمته عليه . أما العربي فلم تكن له آلهة بحر تحميه من شرّ اليمّ ، لا بل انه قلما ارتاد البحار وجاب آفاقها وهو إذا طرق باب الهند فقد كان يلزم سيف الشاطىء في معظم الأحايين ، وهكذا لم نجد في الأدب العربي القديم شيئاً يطلق عليه اسم أدب البحر ، ذلك الأدب الذي يصوّر لنا حياة الخضمّ و (افروديت) منبثقة من زبده الأبيض الناصع ، وأسطول (آغاممنون) ومغامرات القرصان وانطلاق الروّاد في مجاهل البحار لاكتشاف الرقاع الجديدة ، كان كل هذا مصدر أدب وحداني طريف ، مالمسناه في شعر (أندره كاندل) ، وآثار (كاميل ثالو) الذي يعتبر من

أكبر كتاب البحر ، و (رامبو) في (سفينة السكري) والكاتب القصصي (ستيفان زويك) في حكاية (ماجلان) وأخيراً (بودلير) يطلع علينا بأروع شعر عن البحر ، يطلع علينا بقوله : (ما من أحد يعرف ثروتك ، كم أنت غيور على كتمان أسرارك) ويتابع بودلير قصيدة (الرجل والبحر) على هذا النحو من التنظيم الذي خص به وانفرد به دون غيره من الشعراء ، ومن ثمّ (بيرلوتي) وكلود فارير يصفان البحر وصفاً منثوراً لا يجاريه وصف.

ولكن شعراء وكتّاب الانجليز فاقوا غيرهم في هذا الباب ، فقد كان البحر مادة حياتهم الأولية ، منه انطلقوا ومنه ذهبوا في الآفاق ، ومنه شادوا امبراطوريتهم من سفينة الصيد البدائية حتى أحدث سفينة عصرية ، تحمل فوقها شعراء مغامرين كما حدّثنا (مايكل لويس) في كتابه (البحرية البريطانية ورجالها) — هؤلاء الشعراء وصفوا شيئاً أعظم من البحر أيضاً ، وصفوا معارك البحر ، كما فعل الشاعر (كامبل) حيث نمّق معركة (الارمادا) ثم الطرف الأغر أحسن تنميق .

***

نشأ العرب نشأة بدوية ، لذلك عزّ عليهم مغارقة المفاوز الى غيرها من سبل هذه الحياة الدنيا ، فكانت معظم رحلاتهم التجارية برية ، رحلتي الشتاء والصيف ، ولم يغامروا فوق سطح البحر وراء ما قال عنه الشاعر بول كاك .

[سل أيّ بحّار كان ، لماذا تطوّف فوق البحر ، أجابك كي أشاهد بلداناً جديدة]
لأن المدينة ذاتها لا تستهويهم .

***

وهكذا ظلّ الأدب العربي مفتقراً الى هذا الضرب من الأدب حتى مكّن الله لهم في الارض وضطروا تحت تأثير عوامل دفاعية في أول الامر الى بناء أسطولهم البحري ولم يتم ذلك إلاّ في عهد معاوية ، ذلك لأن معاوية طلب من الخليفة عمر بن الخطاب السماح له بانشاء أسطول بحري يرد به عدوان أسطول الروم عن السواحل الشامية ، إذ كان الروم يغزون البلدة الساحلية بحراً ثم يوغلون في البحر بعد إسرائهم في أهلها ذلةً وإمعانهم في روزائها

نهراً ، ويقف جيش معاوية أمام هذا العدو الذي لا سبيل إلى مقارعته إلاّ بنفس سلاحه ، فيقرّر معاوية انشاء أسطول بحري .

***

بدأ طلب انشاء الاسطول العربي البحري في عهد معاوية إبان كان والياً ، فدرس الخليفة عمر الطلب ، فارتأى معرفة رأي عمرو بن العاص والي مصر في ذلك الحين ، فلما عرف عمرو ابن العاص أن معاوية سيضيف قوة بحرية إلى قوته البرية ، خوّف الخليفة عمر بن الخطاب من البحر ، برسالة تعدّ من أروع رسائل أدب البحر عند العرب ، فما كان من الخليفة إلاّ أن قال (لا تجعلوا بيني وبين المسلمين بحراً) .

ولكن تطوّر العرب التاريخي الناهض ، كان يسير بسرعة فائقة ، بحيث لم يكن في مقدور أية قوة في العالم وقف زحفه ، فقد دخلت الامبراطورية العربية في عهد جديد ، بعد تقلد معاوية الخلافة ، إذ دخلت في عهد الامتداد ، ومثل هذا يتطلب لا حماية السواحل العربية فحسب ، بل انشاء السفن التي تحمي هذه السواحل وتغير على بلاد الأعداء أيضاً .

وكان أول أسطول عربي أسطول (الأمير عبد الله الفزاري) وكان شعاره (الغمرات ينجلينا) ، ولما كان معاوية يدرك موقف العرب من البحر وكرههم له ، لم يشأ حملهم بالقسر على الجهاد في غمراته بل جعله موقوفاً على المتطوعين الذين يتهدون اليه من تلقاء أنفسهم . وقد كان معاوية من الذكاء بحيث أنه ضاعف أعطيات هذا النفر من الناس الأشاوس ، ولما كانت البلاد الشامية على اتصال وثيق بالبحر منذ العهد الفنيقي ، لذلك نهدت الشام إلى إعداد الاسطول ، معدة إياه من أرز لبنان العظيم .

لم يكد الأسطول العربي يجهز ، حتى علم معاوية بغارة بحرية على سواحله ، فأرسل أسطوله في إثره ، وهو أسطول صغير يعوزه التدريب البحري ، ومع هذا فقد هزم أسطول الروم ، وبذلك كشف العرب عوار الروم البحري ، وأدركوا أنهم ليسوا في البحر أمنع منهم في البر ، وهكذا راحوا يغيرون على سواحل الاعداء تحت قيادة (الفزاري) غير حافلين بأعباء البحر ، ولكن (الفزاري) مات ميتة ماجدة وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، فقد تنكّر ونزل إلى مدينة رومية تقوم على رابية حتى يتسنى له وهو أمير البحر

معرفة مواضع الضعف في المدينة ومهاجمتها ، غير أن سوء حظه دفعه الى افتضاح أمره ، فقد عرفته امرأة رومية بالرغم من تنكره الشديد ، إذ سبق له أن أغار على بلدتها ، فأغرت به الأهلين وتصايحوا من كل حدب وصوب ، ثم تألبوا على الأمير العربي الشاب ، الذي ظل يحارب حتى مزقته السيوف والرماح ، بعد أن قتل من الأعداء مقتلة عظيمة .

من هنا يتضح لنا أنه بظهور الأسطول العربي ظهر الى جانبه تاريخه ، فالهجوم على القسطنطينية براً وبحراً هو جماع تحف وصفية عن معارك البحر نطالعها منثورة في كتب (الطبري والمسعودي وابن قتيبة) وخاصة فيما يطلق عليه اسم (المغازي والفتوح) ، ولكن ما كتب هؤلاء لا يعدو التاريخ ، إذ ظلّ ينقصه ذلك الشيء الوجداني الذي يتطلبه الأدب . كان البحر عند العرب في أول الأمر ، مركب دفاع عن السواحل ثم تطوّر الى مركب هجوم ، ولما أرى العرب بدأ الفن يحتل محله في حياة العرب البحرية ، ذلك لأن الإنسان لا يقنع بالطبيعة ، بل يعمد الى الفن ليضاعف به الحياة ، ومن هنا نشأت الزخرفة في الأسطول العربي وأدب البحر عند العرب وعند الفرنجة .

***

قضي على الدولة الأموية في الشرق فقامت دولة أموية أخرى في الغرب ، وكانت هذه الدولة أكثر عناية بالأسطول من كل دولة عربية أخرى فقد كان عليها أن تصد عادية الفرنجة كما كان عليها أن تصد عادية (العبيديين) فكانت المعارك بين الطرفين مطردة مستمرة ، وبالرغم من هذا التناحر القائم بين أبناء القوم الواحد فقد تمكن العرب من بسط سلطانهم على البحر المتوسط والاستيلاء على قسم كبير من سواحله وجزره (الاستراتيجيكية) بحيث نستطيع القول أن العرب في القرون الوسطى كانوا على حق إذا قالوا عن البحر المتوسط : هو بحرنا .

ولما كان الظفر يقابل عادة بالبهجة فقد تأثر الشعراء العرب به وصاغوه شعراً ثم اندفعوا الى أبعد من هذا الحد فوصفوا البحر وصفاً فنياً ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء : (ابن هاني الاندلسي وعلي بن محمد الأيادي التونسي وابن قلاقس الاسكندري وابن حمديس ...)

كان الواحد من هؤلاء الشعراء إذا طرق باب أدب البحر وحاول وصف السفن قال عنها :

(رب جوار منشئات طوائر بين السماء والماء ،

إذا نشرت أجنحتها روض ونور ،

فهي ذات هدب من المجاذيف خال ،

وهي في نفس الوقت هدب باك لدمعه اسعاد

غير أن هذه السفن الجارية على البحار

تحمل فوقها حمم شواظها من لهب :

فكل من توسل إليه يغدو رماداً

الكماة على ظهورها وبطونها دائماً وأبداً حذرين

وإذا انطلقت كان انطلاق السحاب المنتق ،

والعجب العجاب في أمرها أن يحمل الأسد الضواري زورق .

والذي أروع من هذا أنها ذات زئير وهي صوامت .

وتزحف زحف موكب في زورق ، فهي ترمي ببروج إذا ظهرت العدو ، وينفط بخاله الانسان ماء يذكي السكان.

وهي هوائي طائرة ومدن بنيت على الماء ،

ذات بروج هادمة تقذف بالحمم) .

***

هذه نتف منثورة من أدب البحر عند العرب ، لم يقتصر أمرها على أدب الأندلسيين والفاطميين وغيرهم من سكان شمالي أفريقيا ، بل شمل وحي البحر العباسيين أيضاً ، فقد كانت سفن الأسطول العباسي مثل سائر سفن الأساطيل في القرون الخالية ، أي أنها كانت تجارية وحربية في وقت واحد ، إذ لم يتم التفريق بينهما إلاّ في عهد (هنري الثاني) لذلك كان على الذي يرتاد البحار أن يكون مغامراً ، ومن هنا نشأت تلك الأقاصيص العظيمة الرائعة عن (السندباد) وغير السندباد . وكانت قصة (الف ليلة وليلة) تؤلف جزءاً غير يسير من أدب البحر .

ولكن الغرب إذا أبدع محمد بن هاني الأندلسي فقد أبدع الشرق النواسي هذا الشاعر الذي وصف سفينة الأمين ، وهي تشق عباب دجلة ، وقد نحتت على شكل أسد ، والأهلون مصطفون على الضفتين يشاهدون هذا الموكب الرائع حيث القيان تغني فوق السفينة .

***

ويقول صاحب الأغاني إن الخلفاء العباسيين ألفوا البحر وأحبوه ، فكانوا يركبون دجلة ويقضون فوق مائه سمرهم وأنسهم ، حتى أن الأمين كان لا يسمع غناء الملاحين إلا في الزلالات الفضة الأنيقة .

***

حيال كل ما تقدم لا يسعنا إلا التساؤل :

أيقوم أدب أمة بدون أدب بحر ؟

لا ريب أن الجواب على هذا السؤال يرجع الى عاملين خطرين :

الاول : مركز البلاد الجغرافي وقربه وبعده من البحر .

الثاني : حضارة الامة وامتداد سلطانها .

فالمركز الجغرافي البحري يساعد مساعدة تامة على بعث ادب البحر ، وقد يتطبع عصر بكامله بطابع هذا الأدب كما كان الحال في انكلترا إبان القرن الثامن عشر . والحضارة وامتدادها من شأنهما خلق شرائط اجتماعية أقل ما يقال فيها إنها توحي بأحاسيس غنية موفورة ، فالشاعر المعاصر (مايسفيلد) لا يصور أدب البحر تصوير القدماء ، بل يصوره تصويراً حسياً يخاطبه ويتحدث اليه ، ويناجيه ويبثه شكواه . وهكذا تمتد ذات الشاعر الوجدانية كلما تقدمت الحضارة ، لأن الحضارة في جوهرها امتداد لفردية الانسان ، والشاعر وحده أكثر الناس تصويراً لهذا الامتداد .

سوريا — دمشق : نسيب اورفلي